مراجعة كتاب

الفكر التاريخي في «صخرة طانيوس»(*)

مسعود ضاهر

مدخل منهجي

لا شك أنّ علم التاريخ، من حيث هو علم تطوّر المجتمع، يتقاطع مع جميع العلوم الإنسانية التي تعنى بالإنسان، فرداً كان أم جماعة. ويمتاز كل علم من العلوم الإنسانية عن غيره بشيء من المنهج، وأسلوب البحث وأدواته، والتحليل، والفرضيات، والاستنتاجات. وهذه العلوم جميعاً تتقاطع فيما بينها على أساس أنها علوم إنسانية، مادتها الإنسان، وغايتها الإنسان في جميع أعماله، وعبر مختلف أشكال التحالف والصراع بين الجماعات الإنسانية. هكذا تتداخل الثقافة الذاتية بالثقافة المجتمعية، ويتداخل الفرد بالجماعة، في حركة من التفاعل المستمر عبر مختلف حقب التاريخ.

ان نظرة موضوعية إلى تاريخ الرواية الواقعية، أي الرواية التي ترسم حركة تطوّر المجتمع استناداً إلى الوثائق التاريخية الدالّة عليها، تؤكّد أنّ كبار الروائيين كانوا مؤرّخين بامتياز من حيث قدرتهم على تحليل حركة الواقع وإظهار مختلف أشكال التفاعل الكامنة في داخلها. يكفي أن نذكّر في هذا المجال بروايات بلزاك، وزولا، وفلوبير، ودوستويفسكي، وتولستوي، وغوركي، وكثيرين غيرهم من الروائيين العالميين. كذلك نشير إلى روايات نجيب محفوظ، وتوفيق يوسف عواد، وعبد الرحمن منيف، وحنّا مينه، والطيب صالح، وكثير غيرهم من الروائيين العرب. في العقود القليلة المنصرمة، دخل مجال الكتابة الروائية عددٌ من علماء الاجتماع العرب أو الفلاسفة البارزين كعبد الله العروي، وحليم بركات، وهشام شرابي، وبنسالم حميش وغيرهم، فحملوا معهم أدواتهم المعرفية الأكاديمية، وجفاف البحث العلمي أحياناً. لكن الهدف الأساسي من تجارب هؤلاء في حقل الكتابة التاريخية الروائية هو تطوير المنهج

الابستمولوجي الاجتماعي الصرف، وتطعيمه بأدوات التعبير الأدبي، لرسم سيكولوجية الأفراد والجماعات، وإبراز أواليات التبديلات الاجتماعية استناداً إلى علم النفس الاجتماعي، والانتروبولوجيا الثقافية، وعلم الاجتماع، بالإضافة إلى الوثائق التاريخية نفسها التي تشكّل الركيزة المعرفية الأولى في علم التاريخ وتساعد على إبراز مختلف الاتجاهات والتناقضات الكامنة فيه، والتي يطلق عليها عادة مصطلح «حركة التاريخ». يتّضح من ذلك أنّ الوثائق التاريخية التي تبرز حركة الواقع لم تعد حكراً على المؤرّخين، وهي لم تكن كذلك منذ نشأة الرواية الواقعية على الأقلّ. فالثقافة التاريخية، من حيث هي معرفة علمية موثقة ومحفوظة، حقل مفتوح يستفيد منه جميع الباحثين في الدراسات الإنسانية، كل على طريقته مستنداً إلى أسلوبه المميّز، وأدواته المعرفية، وثقافته الذاتية، وقدرته على استخلاص الدروس والعبر من تلك الوثائق، وذلك على صعيد الأفراد أو الجماعات.

لكن الرواية التاريخية تمتاز عن غيرها من الروايات بأنّها تتّخذ من الأحداث التاريخية التي حدثت فعلاً على أرض الواقع موضوعاً لها. وبعض الروائيين في هذا الجانب يحيلون القارئ على وثائق تاريخية أو مخطوطات قديمة، ويقتبسون منها نصوصاً محدّدة مع الإشارة إلى أرقام الصفحات التي تمّ الاقتباس عنها. وقد يذهب بعضهم إلى إيهام القارئ بأنّه يستند إلى روايات تاريخية مثبتة دون الإشارة إلى مصادرها، ويعيد تبويب المعلومات التاريخية تبعاً لمقتضيات العمل الروائي نفسه. وكثيراً ما يضيف بعض الروائيين صفحات كاملة لوثائق تاريخية مضمرة أو تمّت صياغتها في ذهن الروائي فبدت أقرب ما تكون إلى الحقائق التاريخية دون أن تجد لها سنداً وثائقياً مكتوباً يؤكّدها أو ينفيها.

في هذا المجال، يتداخل التاريخ المكتوب والموثّق بالتاريخ المضمر أو المحتمل الحدوث. فالأحداث التاريخية لا تقتصر على ما ورد في كتب التاريخ والمذكرات. بل هي من الاتساع والشمولية والكثرة، بحيث يصعب توثيقها أو حصرها في مجلّدات مكتوبة، مهما بلغ حجمها، ومهما حاول المؤرّخ الإحاطة ببعض جوانبها. والروائي الباحث في الأحداث التاريخية فنان قادر على جمع نماذج تاريخية من أرض الواقع، وصياغة الانفعالات البشرية بشكل فني أقرب ما يكون إلى الواقع التاريخي نفسه، بكلّ تناقضاته واحتمالاته. هكذا تبدو الرواية التاريخية الناجحة تعبيراً عن أحداث تاريخية واقعية، سواء أسُجّلت تلك الأحداث أم لم تسجّل. والروائي المبدع قادر على التقاط ما هو أساسي في حركة الواقع التاريخي من خلال دراسته المعمّقة للأحداث التاريخية وما آلت إليه فيه تحوّلاتها الاجتماعية المتلاحقة.

فالواقع التاريخي ليس جمعاً كمياً للأحداث التاريخية بطريقة ميكانيكية

(*) أمين معلوف: **صخرة طانيوس** ترجمة جورج أبي صالح (بيروت: منشورات ملف العالم العربي)، ١٩٩٤.

سكونية، بل حقل معرفي تتحدّد به بنية المجتمع وما تحمل في داخلها من أعمال وتبدّلات مستمرّة تولد حركة التاريخ.

لذلك شدّدت الدراسات العلمية المعرفية باستمرار على رفض كلّ أشكال التعريف التبسيطي للثقافة بحيث تجاوزت تعريفات الثقافة في الآونة الأخيرة المئات دون أن تفي بالغرض. فالثقافة ليست تعريفاً حصرياً بل عملية معرفية تشمل الواقع الموضوعي والوعي الموضوعي معاً. وهي ليست انعكاساً ميكانيكياً لعوامل اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية بل إرادة واعية، وقدرة على تحقيق أهداف لامتناهية. وهي لا ترتبط ببناء فوقي أو ببناء تحتي فحسب بل تعبّر عن حركة الصراع والتفاعل بين مختلف البنى الفاعلة في المجتمع. والرواية التاريخية الناجحة قادرة على الفعل الاجتماعي، أي على نقد أواليات البُنى الاجتماعية كأي بحث علمي منهجي يسعى إلى دراسة المجتمع، وتحليل قواه الاجتماعية، ورسم آفاقه المستقبلية. وهذا الشكل من التحليل الروائي هو أقرب ما يكون إلى العلم التاريخي من حيث دقّة المعلومات، وصراحة المنهج النقدي، وتحليل حركة الواقع وقواه الاجتماعية، والكشف عن تناقضاته البنيوية. فتتحوّل الرواية التاريخية إلى رواية نقدية تلعب دوراً أساسياً، كباقي الدراسات النقدية، في كشف جوانب معينة من البنية الاجتماعية. وإذا كانت للنقد الاجتماعي غاية معلنة أو مضمرة في الرواية التاريخية الواقعية، فإنّ تلك الغاية لا تتحقّق إلاّ إذا وُجد الروائي المثقف ثقافة تاريخية معمّقة، وتمّ إعداده فنياً بحيث يستوعب تقاليد الكتابة الأدبية، وأساليبها، ومصطلحاتها، وكان يتمتّع بالموهبة الإبداعية في اختيار الأشكال الفنية التي يطوّعها لأغراض روايته التاريخية.

نخلص من ذلك إلى القول إن الرواية التاريخية شكل من أشكال البحث العلمي الذي تتوافر له شروط الدقّة التاريخية مع الإبداع الفنّي الذي يعيد صياغة الأحداث التاريخية بشكل آخر تنكسر فيه حواجز الزمان، لأنّ عالم الرواية التاريخية عالم إنساني من نوع آخر، يستند إلى الوثائق التاريخية دون أن يبقى في حدود علم التاريخ، وجفاف منهجه، وصراحة أدواته البحثية.

أمّا الثقافة التاريخية فحقل معرفي، أو مخزون لا ينضب من النصوص التي يستفيد منها كلّ من المؤرّخ والروائي بشكل يستحيل معه تصنيف الروائي مؤرخاً أو المؤرّخ روائياً. إنهما حقلان معرفيان يتكاملان ولا يتدامجان، يتقاطعان عند الوثائق التاريخية ثم يفترقان كلّ في اتّجاه، لتحليل تلك الأحداث واستخلاص نتائجها ودروسها وعبرها.

أمين معلوف: الروائي الذي درس التاريخ بعمق

ولد أمين معلوف في قرية «عين القبو» في جبل لبنان، وترعرع في أسرة معروفة بالعلم والأدب والتاريخ. استمع أمين صغيراً إلى رواة القصص أو «الحكواتية» الذين غذّوا خياله بحكاياتهم عن المجاعة، والمجازر الدموية التي انفجرت بين الطوائف اللبنانية في جبل لبنان. هذا بالإضافة إلى أخبار الإقطاعيين، وسيطرتهم على مقدرات الفلاحين، وتحكمهم بالنساء، واعتمادهم سياسة البلص والسخرة، وارتباطهم التبعي بالقناصل الأجانب. وقد جرّ ذلك الارتباط ويلات على اللبنانيين، بعد حملات عسكرية أجنبية وحروب متلاحقة على أرض لبنان، ضمن استراتيجية واضحة تهدف إلى تدمير السلطنة العثمانية من الداخل، ومن ثم اقتسام ولاياتها بين الدول الأوروبية المنتصرة. ثم تحققت أهدافهم كاملة في نهاية الحرب العالمية الأولى واقتُسم المشرق العربي بكامله بين الفرنسيين والإنجليز. عمل أمين معلوف في الصحافة لسنوات عدّة، وشارك بحماسة الشباب في النضالات الطلابية التي بلغت ذروتها عام ١٩٦٨. وكان يتبنى أفكاراً تقدّمية تدعو إلى تطوير النظام اللبناني، وتجاوز الذهنية والممارسات الإقطاعية في الحكم. وبعد انفجار الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥ اختار أمين معلوف طريق الهجرة إلى الخارج والاستقرار في فرنسا حيث استمر في عمله الصحافي، وانصرف إلى تعميق الوعي الذاتي لديه بالاطلاع على المصادر التاريخية الأساسية التي تؤكّد على ثبات الروابط التاريخية، في مختلف المجالات، بين الشرق والغرب، مشدّداً على أهمية التفاعل الحي بين الثقافات الغربية والثقافات الشرقية رغم كلّ الصراعات الدموية والحملات العسكرية التي رافقت ذلك التفاعل.

في باريس، أصدر كتابه الأوّل عام ١٩٨٢ بعنوان **الحروب الصليبية كما رآها العرب** الذي يعتبره أمين معلوف أكثر كتبه توثيقاً وقرباً إلى الكتابة التاريخية، دونما اهتمام جدّي بالرواية. وحين قرأ مصادر أساسية عن ابن بطوطة بهدف الكتابة عنه، تولّدت عنده رغبة ذاتية في الابتعاد عن رواية التاريخ إلى فنّ الرواية بعد امتلاء الأدوات المعرفية اللازمة. وعند صدور روايته الأولى **ليون الأفريقي** في باريس عام ١٩٨٦، لاقت نجاحاً مدهشاً وأعادت التذكير بكتابه الأوّل عن الحروب الصليبية، خاصة بعد صدور روايته التاريخية الثانية بعنوان **سمرقند** في باريس عام ١٩٨٦.

نشير هنا إلى أن أمين معلوف أصبح، خلال فترة زمنية قصيرة، ١٩٨٢ - ١٩٨٨، علماً بارزاً من أعلام الرواية التاريخية المنشورة باللغة الفرنسية، وفي قلب أوروبا بالذات، أي في عاصمة الثقافة باريس. وقد لفت نظر النقاد أسلوبه الروائي البسيط والجذّاب معاً، وهو أسلوب يذكر بأسلوب الحكواتي السائد في البلدان العربية مع مهارة فنية رفيعة المستوى. كما لفت نظرهم كذلك اهتمامه الدائم بالتفاعل الثقافي بين الشرق والغرب، الذي أثمر روايته التاريخية الثالثة **حدائق النور**. ثم نشر رواية جديدة ابتعدت كثيراً عن المصادر التاريخية وحملت عنوان **القرن الأول ما بعد بياتريس**، وتنتمي إلى عالم الخيال العلمي في معالجة مشكلات المرأة الشرقية.

وما لبث معلوف أن عاد إلى الرواية التاريخية فنشر آخر رواياته **صخرة طانيوس** التي نالت جائزة غونكور الفرنسية في ٨ تشرين الثاني ١٩٩٣.

يتضح من ذلك أنّ أمين معلوف روائي مثقّف ثقافة تاريخية معمّقة، قد قرأ كمّاً من المصادر الأساسية التي تناولت تطوّر العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب، وطاف على مراكز العوالم القديمة التي كانت مزدهرة في مصر، وبلاد ما بين النهرين، وبلاد فارس، وروما القديمة، وغرناطة، وعواصم أفريقية عدّة، قبل أن يعود، في روايته الأخيرة، إلى ربوع بلده الأمّ، أي جبل لبنان.

ومن نافلة القول إنّ من يمتلك هذه الثقافة التاريخية المعمّقة قادر على تجاوز حدود الزمان والمكان والشخصيات التاريخية بحيث يتّسع المكان إلى أية رقعة جغرافية، ويتّسع الزمان ليتجاوز حدود القديم والوسيط إلى المعاصر والمستقبل، وترتدي الشخصية التاريخية الأصلية صفة الشخصية الإنسانية. فبطل الرواية التاريخية يتنقى من السمات التي ألحقتها به المصادر التاريخية المتناقضة على الدوام، ويتحوّل، على يد الروائي المبدع، إلى طيف بطل تاريخي تَخَفُّف من كامل أثقاله، فدخل عالم الحلم والشفافية.

«صخرة طانيوس» كما يراها أمين معلوف

في مقابلة هامّة مع مجلة **الوسط** [العدد ٩٤، الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٤، الصفحات ٦٠ - ٦٣]، يجيب أمين معلوف عن الأسئلة التي تمحورت حول الأسباب الكامنة وراء نشر رواية تاريخية عن لبنان في هذه الفترة بالذات. ونحن نقتطف بعض تلك الأجوبة بشكل مكثف يجعل أمين معلوف يقدّم مفتاح منهجه بنفسه.

«من أين أتت هذه الرواية؟ أعتقد من رغبتي في كتابة شيء عن لبنان، عن جوّ لبنان. وهي رغبة تساورني منذ زمن بعيد بعد خمسة كتب لم أتعرّض في أيّ منها مباشرة للمادة اللبنانية... تردّدت كثيراً قبل أن اختار المرحلة التي سأتحدّث عنها... وحسمت أمري أخيراً فاتخذت، كنقطة انطلاق، حادثة حقيقية وقعت في محيط عائلتنا... إنّها عبارة عن جريمة قتل حدثت أوائل القرن التاسع عشر، وفي قريتنا نفسها... المهم أنه، ما بين الحكاية كما حدثت في الواقع التاريخي، والشكل الروائي الذي اتّخذته، هناك فارق كبير. الحادثة كانت بالنسبة لي مجرّد نقطة انطلاق لا أكثر. فلا بطريرك الرواية هو البطريرك التاريخي ولا القاتل هو القاتل الحقيقي... الحادثة - الجريمة وقعت سنة ١٨١٢ لكنها في الرواية تقع في العام ١٨٣٨، هناك ربع قرن يفرّق بينهما.

أتصوّر أنّ الفارق في الأزمنة يعود إلى أنّني اخترت زمن الرواية لأسباب تتعلّق برغبتي في موضعة قصّتي في إطار الجوّ العام الذي ساد لبنان والمنطقة في أربعينات القرن الفائت وحولها، وذلك للوصول إلى معانٍ معيّنة تتعلّق بتاريخ البلد. ففي ذلك الزمن بدأت الصراعات الكبرى المتعلّقة بلبنان، وكنت راغباً في أن أتحدّث عن تلك الصراعات وعمّا قبلها... شعرت أنّ عليّ تفادي سرد الأحداث بشكل مباشر. فحتى الضيعة (القرية) التي تخيّلت فيها الأحداث جعلتها مزيجاً من ضيعَ (قرى) عدّة، فلم تعد هي ضيعتي نفسها. صحيح أن كلّ ما في الرواية مستوحى من أمور حقيقية، لكن ليس هناك أيّ شيء وصفته كما هو. الأحداث في الرواية أحداث عديدة حصلت، ولكن في أزمنة أخرى ومع أشخاص آخرين لكنّني استعنت بها. خذ مثلاً حكاية الإضراب عن الطعام. هذه الحادثة حصلت ضمن عائلتنا وكان أبي نفسه شاهداً عليها فنقلها. والحكاية تتعلّق بقريب له قال له أبوه إنّ عليه أن يعمل شيئاً يطعمه خبزاً بدلاً من الذهاب إلى المدرسة. فقال الفتى إنّه لا يريد أن يأكل خبزاً. وأضرب عن الطعام».

«هذه الحكاية التي عايشها أبي بنفسه ورواها لي أثرت فيّ كثيراً، وارتأيت أن أدمجها في أحداث الرواية. لقد أعطيت هذه الحكاية مثلاً لأصل من خلالها إلى مسألة الترابط الزمني بين زمن الراوي وزمن الكاتب. هذا الترابط الذي يتكوّن لديّ من ستار رفيع وضعته بين الزمنين... الحقيقة إنّني أشعر دائماً باستحالة الكلام على الزمن الذي أعيش فيه بشكل مباشر، بل أنّني أقترب منه بشكل أفضل حين أضع بيني وبينه مسافة. لكنّني حين أكتب ينتصب أمامي شبح الزمن الراهن وتطغى الأوضاع القائمة على كل اهتماماتي... فالحقيقة أن اهتماماتي الرئيسية تنصبّ بشكل دائم على سؤال يؤرقني وهو: أين نحن؟ وإلى أين ترانا ذاهبين؟... فأنا حين حكيت عن المستقبل وضعت شخصاً يروي الماضي، والماضي بالنسبة إليه هو المستقبل بالنسبة إلينا... لديّ شعور بأنّ لبنان سيخرج من أزمته. فتجربة لبنان هي تجربة رائعة ورائدة. الأساس في لبنان هو التعايش... إنّ فكرة التعايش هي واحدة من أوسع وأنبل الأفكار التي يمكن التعامل معها اليوم. وأنا عندي إيمان كبير بأنّ ثمّة جديداً يولد في لبنان، وفي المنطقة حول لبنان. وهذا أمر أساسي بالنسبة إليّ وأساسي بالنسبة إلى العالم. ففي اعتقادي أنّ دور منطقتنا في العالم دور أساسي جدّاً لأنّ موقعها بين الشرق والغرب، مادياً ومعنوياً، موقع أساسي ومحوري. وإذا كانت هناك منطقة في العالم بإمكانها أن تجد حلولاً للصراعات المتفجّرة، فإنّ هذه المنطقة هي منطقتنا بالتحديد... ويمكن القول أنّني كتبت الرواية الأخيرة **صخرة طانيوس** من هذا المنطلق، معتمداً على إحساسي بهذا الواقع قبل سنتين، وهو إحساس زاد لديّ في الآونة الأخيرة... فكرة الكتاب هي حكاية الهجرة ما قبل الهجرة... وفي الصفحة الأخيرة، يعتلي الراوي الصخرة التي ما كان له أن يعتليها وينظر أمامه فيجد البحر كطريق متاح له. إنّها حالة ذاتية في نهاية الأمر».

إنّ قراءة متأنّية لهذا الاقتباس الطويل يمكن أن تقود إلى الملاحظات المكثّفة التالية:

أ - إن أمين معلوف مثقّف ثقافة تاريخية معمّقة تؤهّله لمعالجة الوقائع التاريخية بشكل علمي دقيق على غرار أيّ مؤرّخ متخصّص. وإن مسألة الاقتباس والحواشي والتقنية المستخدمة في الكتابة التاريخية ليست عصية عليه بل اعتمدها بشكل خلاق في كتابه الأوّل **الحروب الصليبية**.

ب - إنّ الحدث التاريخي الذي تدور حوله رواية **صخرة طانيوس** حدث حقيقي لا متخيّلٌ أو من صنع الروائي. فقد سمع عنه روايات كثيرة، ثم عاد فقرأ الوثائق الأساسية، المحلية والفرنسية والإنجليزية التي قدّمت معلومات إضافية دقيقة حول الأسباب التي أدّت إلى وقوعه والنتائج الهامّة التي أسفرت عنه.

ج - إن شخصية طانيوس هي شخصية تاريخية في الأساس. فقد كانت لدى معلوف رغبة أكيدة في الكتابة عن جبل لبنان في القرن التاسع عشر. وفكر ملياً بالاستناد إلى شخصية البطل الفلاحي طانيوس شاهين. فهو يقول في مقابلة صحفية إنّه جمع فعلاً معلومات دقيقة حوله، وكتب بطاقات عدّة بعنوان طانيوس. وما إن اهتدى إلى موضوع **صخرة طانيوس** حتى أهمل الكتابة عن طانيوس شاهين واحتفظ بالاسم عنواناً لروايته. **Le Commerce du Levant**. No 5328, du 10 Mars 1994 - PP 111 - 114.

د - إن المؤلف نفسه تقمّص شخصية الحكواتي أو الراوي، المعروفة جيّداً في لبنان وباقي الأقطار العربية. فكان أميناً جدّاً للأحداث التاريخية من جهة، وللأسلوب الذي اعتمده في سردها، وهو أسلوب شرقي بحت، بعيد كلّ البعد عن أسلوب الرواية ذات النزعة الشمولية أو العالمية. وهو يؤكّد ذلك شخصياً في مقابلة صحفية جاء فيها: «طانيوس هو الحكاية؛ فأنا أروي حكاية قرية مثلما أخبرني إياها أهلي، وأهل ضيعتي. المقصود من طانيوس أن يكون كذلك. ليست **صخرة طانيوس** رواية بالمعنى الحقيقي. من الممكن أنّ نسمي الكتاب: «حكاية شرقية». حاولت أن أخبر القصّة بطريقة جديدة لها، شكلياً، علاقة بالرواية والتي هي، عملياً، أقرب إلى الحكاية الشرقية. صدف أنّ الكتاب حاز جائزة «غونكور». لكنه، بالتأكيد، ليس أقرب الكتب إلى فكرة الرواية، مثلما يتصوّرون ذلك في الغرب». [مقابلة مع جريدة **السفير** البيروتية، بتاريخ ٨ آذار ١٩٩٤].

المؤرخ/ الروائي، تبادل المواقع

لا شكّ أنّ الرغبة الجامحة في الكتابة عن لبنان الذي مزّقته الحرب الأهلية طوال سنوات ١٩٧٥ - ١٩٩٠ جعلت أمين معلوف يخرج من الحاضر إلى الماضي، ليعود مجدّداً إلى الحاضر، مزوّداً بعبر التاريخ ودروسه على طريقتي ابن خلدون وهيجل. فلبنان القرن التاسع عشر هو لبنان الحرب الأهلية والصدامات الدموية بين الطوائف اللبنانية التي أفسح زعماؤها في المجال لتدخلات إقليمية ودولية دفع اللبنانيون ثمناً باهظاً لها من دمائهم، وأرزاقهم، واستقرار وطنهم.

الصخرة ثابتة في المكان من حيث هي رمز لثبات لبنان الذي تتعاقب عليه المحن والويلات، فيغادره قسم من أبنائه ويستمر سيل الهجرة على مرّ العصور، دون فصم العرى والروابط بين لبنان المقيم ولبنان المهاجر. والصخرة هي لبنان، هي البداية والنهاية في الرواية، ومنها تتفرّع الأمكنة ومعها تتفاعل حركة الداخل والخارج. هكذا تُمّحي المسافة بين الماضي والحاضر في علاقة جدلية تجعل الماضي قائماً بقوّة في الزمن الحاضر، وتجعل من تكرار أحداث ماضية في الحاضر تعبيراً عن مأساة رهيبة تثبت أنّ اللبنانيين لم يقرأوا جيّداً تاريخهم، ولم يتّخذوا العبر الضرورية من أحداثه الدامية. ومن نافلة القول إنّ الكتابة التاريخية تعتمد، وبالدرجة الأولى، على امتلاك الماضي امتلاكاً نقدياً من خلال الاطّلاع المعمّق على الوثائق الدالّة عليه، وهي متوافرة بكثرة. وهي، ثانياً، مسؤولية معرفية مادام التاريخ هو حقل الصراع الايديولوجي بامتياز، ومادام توظيف عِبَره أو دروسه في الزمن الراهن يساهم في تعميق الوحدة الوطنية وإرساء ركائزها على أسس متينة تمنع تكرار المأساة الدامية على أرض لبنان كما هو حاصل حتى الآن.

فلبنان أمين معلوف هو لبنان جبران خليل جبران الذي نشر مقالته المشهورة: «لكم لبنانكم ولي لبناني» للتنديد بالساسة المحليين الذين قادوا لبنان إلى مسلسل لم تنته فيه الأحداث الدموية المتلاحقة. هذا اللبنان الآخر حاضرٌ منذ الصفحة الأولى حين أهدى معلوف كتابه إلى صاحب **الأجنحة المتكسّرة**، وحاضر بقوّة في الصفحة الثانية عبر إشراقة للشاعر الفرنسي آرثور ريمبو يقول فيها: «إنه شعب أعدّت من أجله تلك الأغاني وتلك اللبنانات الخيالية!... فأية سواعد قوية، وأيّة لحظة رائعة ستعيد إليّ هذه المنطقة التي تنبثق منها مناماتي وأقل حركاتي؟».

وطوال صفحات الرواية يستمر أمين معلوف في البحث عن تاريخ لبنان الحقيقي، التاريخ الذي لم يكتب بعد، أي التاريخ الذي دخل في وجدان الناس فجعلهم يستوعبون دروسه جيداً ليتجاوزوا رقصة الدم باسم صراع الطوائف. ما تربّى عليه اللبنانيون هو تاريخ أسطوري كما يراه أمين معلوف، لا بل تاريخ مزوّر كما يؤكّد عدد كبير من المؤرّخين اللبنانيين أو المهتمين بالتاريخ اللبناني، وهذا ما دفع الروائي إلى التصريح في المقطع الأخير من **صخرة طانيوس**: «عند هذا الحدّ من بحثي المتردّد، نسيت بعض الشيء حيرة طانيوس عند حيرتي أنا. ألم أكن أفتّش، وراء الأسطورة، عن الحقيقة؟ وحين ظننت أنّني بلغت لب الحقيقة، كان صنيع الاسطورة.» (ص ٣١٣).

الحكاية - الرواية هي إذن محاولة جريئة لكتابة تاريخ لبنان الآخر، لبنان جبران وأمين معلوف وغيرهم من الأدباء والشعراء والمبدعين اللبنانيين الذين رفضوا ومازالوا يرفضون أن تُزَيَّفَ الحقائق التاريخية لتحلّ مكانها أساطير الطوائف، وعصبياتها، ونظراتها المَرَضيّة المضخّمة ككيانات قائمة بذاتها ولذاتها، وقولها إنّها قادرة على استقدام القوى الاقليمية والدولية دفاعاً عن مصالح زعمائها المحليين الذين تبدّلت أوضاعهم الاقتصادية ومراكزهم السياسية، دون أن تتبدّل ذهنيتهم الإقطاعية في طريقة ممارسة السيطرة على الدولة واستغلال اللبنانيين.

إنّ توكيد المؤلف على أن روايته ليست تاريخاً، وهو توكيدٌ يتكرّر في جميع مقابلاته الصحفية، صحيح من حيث عدم اعتماده الأسلوب العلمي الجاف في وصف الأحداث التاريخية، وتوثيقها، ووضع الحواشي الدالّة على مصادرها ومراجعها. لكن الصحيح أيضاً أنّ معلوف كان جادّاً في البحث عن تلك الأحداث على غرار ما يفعل المؤرّخ العلمي الرصين بهدف تقديم كتابة روائية تستند إلى معطيات تاريخية مثبتة لا يرقى الشك إلى صحة معلوماتها. وَمَنْ قال ان هناك أسلوباً وحيداً في تقديم المعطيات التاريخية العلمية؟ فالروائي المثقّف والمبدع قادر على توصيف أحداث التاريخ وتحليلها واستخراج العبر منها كأفضل ما تكون الدراسات التاريخية العلمية. تلك هي تجربة أمين معلوف وغيره من كبار الروائيين العالميين الذين استندوا إلى التاريخ في كتابة رواياتهم بشكل إبداعي أقرب ما يكون إلى الحقائق التاريخية المثبتة.

نماذج من الفكر التاريخي في «صخرة طانيوس»

سنحرص على انتقاء نماذج واضحة تُبرز، بالملموس، كيف أنّ أمين معلوف كان حريصاً على كتابة نصّ تاريخي علمي بالدرجة الأولى، ثم إعطاء هذا النصّ طابع الأسلوب الروائي الذي أبدع فيه الكاتب. يصف معلوف، الشيخ الإقطاعي فرنسيس، بقوله: «كانت الضيعة بأسرها ملكاً لسيد إقطاعي واحد. كان وريث سلالة طويلة من المشايخ... كان يلزمه الكثير ليكون من أكبر المتنفذين في البلاد. فبين السهل الشرقي والبحر، كانت توجد عشرات من الأملاك أوسع من ملكه. أمّا هو، فكان يملك فقط (كفريقدا) وبعض المزارع المحيطة بها. أي أنّ سلطته لم تكن تشمل أكثر من ثلاث مئة بيت. وأعلى منه ومن أنداده، كان يوجد أمير الجبل، وفوقه باشاوات الولايات، باشاوات طرابلس والشام وصيدا أو عكا. وأعلى أيضاً، أعلى بكثير، قرب السماء، كان هناك سلطان استانبول. غير أنّ أهل ضيعتي ما كانوا يتطلعون إلى هذا القدر من العلو. «فشيخهم»، في نظرهم، كان أصلاً شخصية رفيعةً..» (ص ١٩).

هذا نصّ تاريخي بامتياز وقد دخلته مسحة روائية بسيطة ولا تنقصه إلاّ الإشارة إلى المصادر التي استقى منها تلك المعلومات المؤكّدة. هناك إذن سلسلة من السلطات التي تفرض نفوذها بشكل تراتبي من أعلى إلى أسفل. فالفلاّح أو المنتج عرضة للسخرة، والبلص، والمصادرة، وكل أشكال الاستغلال. وكانت جباية الضرائب تشكّل النقطة التي تلتقي حولها جميع تلك السلطات في عملية استغلالها الدوري للقوى المنتجة، وكانت قوى فلاحية بالدرجة الأولى. فيصف معلوف هذه العملية بتكثيف رائع حين يقول: «قلما كانت السلطات مستعدّة للتساهل في شأن الضرائب» (ص ٢٣).

وإذا كانت الضرائب والتجنيد الإجباري من نصيب الرجال، فإنّ النساء لم تَنْجُ من السخرة أيضاً، حتى إن بعض الإقطاعيين كانوا يدعون حقهم في ممارسة الجنس في الليلة الأولى مع العروس قبل انتقالها إلى منزلها الزوجي. وكانت هذه العادة البشعة تعتبر امتهاناً فظاً لكرامة الفلاّحين، وشكّلت أَحَدَ أبرز المطالب في انتفاضاتهم المتلاحقة ضد الإقطاعيين طوال القرن التاسع عشر. وقد وصف معلوف هذه العادة بقوله: «يظهر أنّ الشيخ كان، على غرار أسلافه، وعلى غرار الكثير من الأسياد الآخرين في جميع

المناطق، يعيش في اقتناع تام بأنّ جميع نساء أملاكه ملك له، مثل البيوت والأراضي، وأشجار التوت، وكروم العنب، ومثل الرجال من جهة أخرى. وبأنّه يستطيع في أي يوم كان أن يبرز حقّه، حسبما يناسبه» (ص ٢٤).

تجدر الإشارة إلى أنّ الحدث التاريخي الأبرز في **صخرة طانيوس** هو دخول القوّات المصرية إلى جبل لبنان، وكيفية ممارستها التسلّط والاستغلال والبلص والسخرة والتجنيد الإجباري. هذا بالإضافة إلى موقف كلّ من الفرنسيين والإنجليز والسلطنة العثمانية من الحملة المصرية على بلاد الشام وما آلت إليه من تدخّل إنجليزي - عثماني مباشر، لإجبار محمد علي باشا على العودة إلى مصر وحكمها وراثياً. وقد وصف أمين معلوف، بدقّة المؤرّخ الموضوعي، هذه الأحداث البارزة بشكل مكثّف جداً كالتالي: «غني عن البيان أنّ القنصليات الأوروبية كانت مهتمة، في تلك السنوات، بحدث استثنائي: فمحمد علي باشا، حاكم مصر، كان قد بدأ يبني في الشرق، على أنقاض السلطنة العثمانية، دولة جديدة كان مقدراً لها أن تمتد من البلقان حتى منابع النيل، وأن تسيطر على طريق الهند. وكان الإنجليز يعارضون ذلك بأيّ ثمن، ومستعدّين لكلّ شيء للحؤول دونه. في المقابل، كان الفرنسيون يرون في محمد علي الرجل المناسب الذي سيوقظ الشرق من سباته، ويبني مصرَ جديدة متّخذاً من فرنسا قدوة له، إذ كان قد أحضر أطباء فرنسيين، ومهندسين فرنسيين، حتى إنّه عيّن في هيئة أركان جيشه ضابطاً سابقاً من ضبّاط نابوليون. وكان طوباويون قد جاءوا يعيشون في مصر على أمل أن يبنوا فيها أوّل مجتمع اشتراكي، حاملين معهم مشاريع غريبة مثل مشروع شق قناة من البحر الأبيض المتوسّط حتى البحر الأحمر» (ص ١١٦).

إنّ هذا نصٌّ تاريخي دقيق للغاية. وعندما اتّخذ الإنجليز والعثمانيون قرار تقويض التجربة المصرية، وجدوا في بلاد الشام، ومنها جبل لبنان، المكان الأفضل لتدمير الجيش المصري، فمهدوا لذلك بمختلف السبل التي يصفها معلوف بأسلوب تاريخي بحت فيقول: «بين ليلة وضحاها، ما عادت القنصليات كلّها تهتم إلاّ بهذه البقعة الجبلية التي ما شهدت من قبل هذا القدر من المرسلين، والتجار، والرسّامين، والشعراء، والأطباء، والسيّدات الغريبات الأطوار - إشارة إلى اللايدي استانهوب - وهواة الأحجار الكريمة» (ص ١١٧).

لقد درس الإنجليز والفرنسيون جيّداً العنجهية التي تتحكّم بسكّان هذه الجبال، فاستفادوا منها إلى الحدّ الأقصى لبناء استراتيجية ناجحة تقود إلى تكبيد المصريين واللبنانيين معاً خسائر فادحة ولا تكلّف الإنكليز والعثمانيين والفرنسيين، بعد أن انحازوا ضدّ محمّد علي، سوى توزيع حفنة من المال وكميات من السلاح والذخيرة. أمّا اللبنانيون، فرغم معرفتهم الأكيدة بمضمون هذا الصراع، فقد كان زعماؤهم على استعداد تام لكي يلعبوا أدوارهم بعنجهية بالغة ستقود إلى تدمير بلادهم وتفجير الصراعات الداخلية الطوائفية فيما بينهم. وفي ذلك دلالة واضحة على استخدام الروائي أمين معلوف لعلم النفس الاجتماعي في كتابة نصّه التاريخي.

وقد وصف هذه الظاهرة بقوله: «كان أهل الجبل يغترون بأنفسهم. وعندما أدركوا، فيما بعد، أنّ الإنجليز والفرنسيين كانوا يتحاربون عندهم لئلا يتحاربوا مباشرة فيما بينهم، أصبحوا أيضاً أكثر اغتراراً بأنفسهم. فهذا امتياز مدمّر، لكنّه، مع ذلك امتياز!» (ص ١١٧). ويضيف معلوف: «كان هدف الانجليز واضحاً: تحريض الجبل على التمرّد على المصريين، وهو ما كان يجهد هؤلاء طبعاً في تلافيه، بمساعدة الفرنسيين» (ص ١١٧).

نتيجة لذلك كتب محمد علي إلى الأمير بشير الشهابي الثاني رسالة يطلب منه فيها الانضمام إليه. وعندما حاول أن يراوغ بعث إليه برسالة ثانية محرّرة كالتالي: «إما أن تأتي وتنضمّ إليّ مع جندك، وإمّا أن آتي أنا إليك، فأدكّ قصرك وأغرس في محلّه شجر تين» (ص ١١٨). ويعلّق معلوف على الموقف الذي أصبح فيه الأمير بشير، فيستخدم لوصفه صفة «المسكين»، فيقول: «ولكن، لنتفق على المقصود بكلمة «مسكين»: فقد ظلّ الأمير رجلاً مهاباً للغاية، يرتجف الفلاّحون والمشايخ لمجرّد ذكر اسمه، ولكن أمام الباشا (محمد علي) وممثّليه، فقد كان هو الذي يرتجف» (ص ١١٨).

هكذا تهاوت صورة «الأمير الأحمر»، أي بشير الثاني الشهابي. ورغم بقائه في السلطة، فقد بدأت صورته تهتزّ ومعها صورة محمد علي حتى لدى حلفائهما الفرنسيين. فيصف المعلوف تبدّل موقف فرنسا منهما بقوله: «كانت لدى قنصل فرنسا أسوأ فكرة عن محمد علي: «طاغية شرقي يحسب نفسه مصلحاً كي يخدع بسطاء القلوب في أوروبا» (ص ١٢٦).

ومع تبدّل موقف فرنسا من محمد علي، تبدّل موقفها أيضاً من حليفه الأمير بشير، وذلك في ظروف اندلاع حركة التمرّد الداخلي ضدّهما، وازداد معها القمع والإرهاب ضدّ السكّان الآمنين فقط لأنّ الجيش المصري، ومعه القوى اللبنانية التابعة للأمير بشير، عاجزة عن دخول المنازل التي يحميها القناصل الأجانب، وذلك استناداً إلى الامتيازات الأجنبية. وترد تعليقات مطوّلة لأمين معلوف عمّا إذا كانت تلك الامتيازات الممنوحة للأجانب تشكّل سدّاً في وجه الطغيان تضاف إليها «الامتيازات المفرطة المعطاة للعائلات الإقطاعية، والتي تمارس منذ أجيال على شعب مستسلم، وهي لا تخدم أيّة قضيّة كانت» (ص ١٦٤). ثم يخلص المؤلّف إلى الحقيقة التاريخية التالية: «إنّ ضبّاط حاكم مصر ما كانوا يستطيعون شيئاً ضدّ الدول الأجنبية، إلاّ التذمّر والشتم والشرب. أما ضد الشيخ، فبلى. إذ كان نتف شاربه أسهل من مس لبدة الأسد البريطاني.» (ص ١٦٤).

قد تطول اقتباساتنا للنصوص التاريخية الكثيرة الواردة في **صخرة طانيوس**. فهناك وصف للهزّة الأرضية المشؤومة التي وقعت عام ١٨٣٨ وتصدع قصر الشيخ من حيث هو تصدع للسيطرة الإقطاعية دون زوالها. وهنالك إشارات إلى الأوبئة، والأمراض المجهولة، والمواليد المشوّهة، والمجاعة، وعمليات الابتزاز، والضريبة التي باتت تجبى مرتّين في شباط ثم في تشرين الثاني. هذا بالإضافة إلى مضاعفة الرسوم على الأشخاص، وعلى الماعز، والطواحين، والصابون، ومصادرة الدواب، والإساءة إلى أبناء العائلات العريقة. لقد دعم المصريون بورجوازية محلية بغيضة جمعت ثرواتها بالسرقة، والسمسرة، وجمعت حولها قلّة من أهل السوء، والسكيرين الفاسقين الذين يحتقرهم معظم أهل الضيعة. (ص ١٧٣). فكان روكز، من حيث هو تعبير عن هذه البورجوازية الطفيلية الناشئة في جبل لبنان آنذاك، يطمح إلى المصاهرة مع أسوإ ما أنتجته الطبقة الإقطاعية المسيطرة والتي يعبر عنها الشيخ رعد، ابن الشيخ فرنسيس أفضل تعبير. وفي حوار بين روكز وطانيوس، يُبرز أمين معلوف هذا المنحى على الشكل التالي: «لا حاجة بنا إلى الشيخ المسنّ، فلدينا الوريث إلى جانبنا، لدينا

المستقبل». فيعلّق طانيوس بقوله: «كنت أظن أنّ المستقبل، بالنسبة إليك، هو زوال المشايخ». فيجيب روكز: «أجل، هذا اعتقادي الراسخ، ولن أغيّر فيه شيئاً. فالإقطاعيون يجب أن يزولوا، وستري أني سأزيلهم. ولكن، أليست أفضل طريقة للاستيلاء على قلعة ما هي أن نضمن لأنفسنا حلفاء في الداخل؟» (ص ١٧٨).

يصف أمين معلوف ظاهرة روكز بأنّه «من مُحْدثي النعمة ككثيرين غيره من البورجوازيين أو المزارعين المغتنين» وهو يريد تزويج ابنته من «ابن بيت» ووريث عائلة إقطاعية (ص ١٨٠). إنّها صفات قبيحة لقوى بورجوازية طفيلية تدّعي التغيير لكنها تفتقر إلى المصداقية في نشأتها، وأسلوب عملها، وأهدافها، وتوجهاتها المستقبلية. وينحاز المؤلّف بشكل واضح إلى الإقطاعية القديمة التي يعتبرها أكثر أصالة وصدقاً وارتباطاً بمصالح الفقراء والدعاة والفلاحين الذين استمروا على ولائهم للشيخ فرنسيس، وخذلوا روكز وحليفه الشيخ رعد، وحملوا السلاح في وجه الأمير بشير والجيش المصري الداعم له.

وهناك وصف دقيق لما قام به الجيش المصري من تعديات، وسخرة، ومصادرة، وسرقة المنازل والمجوهرات وغيرها (ص ١٩٩). ومع مقتل البطريرك، وهروب طانيوس ووالده جريس إلى قبرص، كان أمين معلوف قد أنجز نصّه التاريخي ليدخل مجدّداً في عالمه الروائي. فتختلط آراء طانيوس بآراء الكاتب نفسه، وموقفه من الحرب الأهلية الأخيرة، ودعوة السلطة إلى ممارسة دورها كحَكَم بين الطوائف لأنّ عدالة الدولة القوية ضمان لبقاء المجتمع وتماسكه وتطوّره. وفي حال عجزها عن ممارسة دورها كدولة قوية وعادلة، فإنّ تقاليد الثأر لدى الطوائف هي أقصر السبل لتفجير حرب أهلية جديدة. وهذا الجانب بحاجة إلى دراسة مستقلة تنتظر من ينجزها.

ملاحظات ختامية

تعتبر **صخرة طانيوس**، في الجانب الأساسي منها الذي سبق هروب طانيوس ووالده إلى قبرص، بحثاً تاريخياً معمّقاً حول أوضاع جبل لبنان في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر. وقد أشرنا إلى قول المؤلّف في وصف كتابه هذا بأنّه بعيد عن الرواية إذا طبقت عليه مقاييس الرواية الغربية المعاصرة.

وهو، أيضاً، بعيد عن البحث التاريخي الأكاديمي إذا طبقت عليه مقاييس ذلك البحث، خاصة لجهة الاقتباس، والحواشي، والفرضيات، والاستنتاجات. أيّ أن **صخرة طانيوس** مزيج من البحث التاريخي والعمل الروائي الإبداعي معاً. فقد استخدم المؤلّف الأسطورة، والمرويات التاريخية، والإشارة إلى مذكّرات تاريخية اكتشفها لاحقاً أحد المؤرّخين الأكاديميين، والروايات الشفوية المتوارثة لدى أفراد العائلة والقرية، وتحديد التواريخ الواضحة، والإشارة إلى سنة الجراد، وسنة الزلزال، وتوصيف الأمير بشير الثاني بلقبه «الغول»، بدلاً من لقب آخر أطلقه عليه مارون عبود وهو «الأمير الأحمر» وغير ذلك.

أدوات البحث إذن ذات منحى تاريخي علمي واضح مع استخدام الأسلوب الروائي في الجمع بين توصيف الوقائع بشكل علمي دقيق، وتلوين الكتابة بالسرد الروائي الذي يبعد الكتاب عن جفاف الأسلوب الأكاديمي. وذلك يدلّ على أنّ أمين معلوف باحث علمي، تزود بثقافة تاريخية معمّقة فجاءت وقائع روايته أقرب ما تكون إلى الحقائق التاريخية المسندة. لكنه أيضاً روائي مبدع صاغ تلك الوقائع بأسلوبه المميّز وأدخل عليها الكثير من الوقائع المتخيّلة التي تجعل القارئ يعيش أجواء رواية تستند إلى التاريخ لكنها، بالتأكيد، ليست تاريخاً، ولا يطمح كاتبها إلى هذه الغاية، بل ينطلق من التاريخ المثبت بالوقائع إلى الدروس والعبر في محاولة جريئة لتقديم تلك العبر للّبنانيين اليوم، تاركاً مهمة الكتابة التاريخية للمؤرّخين المتخصّصين. فلبنان اليوم، لبنان الحرب الأهلية، حاضر بقوّة في رواية **صخرة طانيوس**. وما استحضار جبل لبنان في القرن التاسع عشر إلاّ من قبيل محاكمة الروائي لأصحاب السلطة الذين توارثوا الحكم في لبنان منذ ذلك الحين وأورثوا اللبنانيين سيلاً لا ينقطع من الصدامات الطائفية، والحروب الدموية، وفسحوا المجال أمام التدخلات الإقليمية وتدويل المسألة اللبنانية. بعبارة موجزة، يمكن القول إنّ أمين معلوف حرص على تقديم وقائع تاريخية مثبتة بأسلوب روائي إبداعي يكسر حواجز الزمان والمكان، وهما الركيزتان الأساسيتان في كتابة أيّ بحث تاريخي علمي موثق.

ومن نافلة القول إنّ هذا الامتداد للحدث التاريخي في الزمان والمكان شرط أساسي لإقامة التوازن بين التاريخ والرواية، بين التاريخ المكتوب والتاريخ المتخيّل. انطلاقاً من هذا التوازن الدقيق بين التاريخ والرواية في **صخرة طانيوس**، يمكن توصيف بعض السمات الأساسية للفكر التاريخي فيها وأبرزها:

أ - المكان

لا شك أن الصخرة هي البداية والنهاية، ومنها تتفرّع باقي الأمكنة المحيطة بها في جبل لبنان. فالصخرة واقع ملموس لا صخرة متخيلة، وهي معروفة لدى الأجيال المتعاقبة من القرية وصولاً إلى الروائي نفسه. وقد استطاع أمين معلوف إسباغ الصفة العالمية على هذه الصخرة بعد أن نالت روايته جائزة غونكور الفرنسية لعام ١٩٩٣.

تمتد الصخرة - الجبل باتجاه القصر المحلي، مركز السلطة الإقطاعية المتوارثة. ثم تتّسع باتجاه الجرد لإبراز علاقة المصاهرة بين العائلات الإقطاعية داخل الطائفة الواحدة والتي قد تتحوّل إلى علاقة جفاء وصراعات داخلية تنتهي بتدمير الموارد الاقتصادية للقوى المتصارعة. وتمتدّ كذلك باتجاه بكركي، مركز الطائفة المارونية في مرحلة تاريخية لم يكن فيها البطريرك قادراً على التحكم بقرار طائفته، بل ذهب ضحيةً للصدامات بين العائلات المارونية نفسها. ثم تمتد الصخرة أيضاً باتجاه السهلين حيث مركز القطب الإقطاعي للطائفة الدرزية، وحيث كانت العلاقة بين الإقطاعيين المحليين لاتزال في مرحلة الود المتبادل قبل أن تتحكم القوى الإقليمية والدولية بالقرار السياسي لجميع الطوائف اللبنانية. ثم تمتد الصخرة أخيراً باتجاه بيت الدين حيث مركز الإمارة الشهابية التي تحول حاكمها الأمير بشير الثاني إلى «غول» حقيقي يلتهم إنتاج اللبنانيين ويعمق الصراعات فيما بينهم تسهيلاً لإدارة حكمه الذي ارتبط تبعياً بالحكم المصري في بلاد الشام.

ب - الزمان

يؤكد أمين معلوف أن أحداث روايته تعود إلى عام ١٨١٢ لكنه ينقلها إلى عام ١٨٣٨ بهدف تحليل مرحلة تاريخية شديدة الخصوبة في مختلف المجالات.

فالزمن التاريخي الممتد سمة أساسية من سمات الرواية التي تتخذ التاريخ موضوعاً لها. وهكذا يمتد زمن الرواية إلى الأحداث اللبنانية لسنوات ١٩٧٥ - ١٩٩٠ حيث يتحوّل الماضي إلى حاضر واضح المعالم في رواية أمين معلوف، وتتبدّل أسماء القوى الإقليمية والدولية المؤثّرة في هذه الحرب دون تبدّل جذري في الثمن الذي دفعه اللبنانيون في القرنين التاسع عشر والعشرين من جراء التدخّلات الخارجية.

ج - قوى الصراع المحلية

وهي شديدة الوضوح في الرواية: صراع الفلاحين مع الشيخ فرنسيس، وصراع الشيخ مع أنسبائه مشايخ الجرد، ومع ابنه رعد، ومع الأمير بشير الشهابي، ومع الحكم المصري، ومع البطريرك الماروني، ثم انفجار الصراع في نهاية الرواية ما بين الموارنة والدروز بسبب الموقف المتردد لطانيوس في اتخاذ قرار بمعاقبة المتعاونين مع الحكم المصري، الذين تسبّبوا بقتل الشيخ الدرزي.. وهو ما قاد إلى الثأر الطائفي المستمرّ في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر في ظلّ غياب دولة مركزية وقوية وعادلة.

وفي الرواية إشارات كثيرة وواضحة إلى الشرائح الاجتماعية في جبل لبنان آنذاك وهي: الفلاحون، الإقطاعيون، بورجوازية الحرير، رجال الدين، المثقفون، رجال العصابات...

ولا يجد الباحث صعوبة في فهم تلك الإشارات ودلالاتها الاجتماعية والطبقية كما يقدّمها أمين معلوف الذي يتّخذ موقفاً بالغ الوضوح من رموزها. فروكز تعبير عن طبقة بورجوازية هجينة ولدت من السرقات واستغلال النفوذ لدى الإقطاعيين، وارتبطت بشكل تبعي بالخارج عبر تجارة الحرير، وامنت بالتغيير الشكلي في البُنَى الاقتصادية والاجتماعية مع ميل نحو المساومة والتحالف الطبقي مع بقايا الإقطاعيين. أما نادر البغّال (الأصح المكاري) فهو مثقّف غير واضح المعالم، يتمتع بإيجابيات كثيرة منها جمع الكتب والمخطوطات، ويتقن عدّة لغات، وعلى علاقة طوباوية بأفكار الثورة الفرنسية، ويحلم بولادة جيل من المثقفين اللبنانيين القادرين على التغيير الجذري؛ إنه رمز لشريحة اجتماعية من المثقفين المهمشين الذين يتقنون فن الكلام أكثر مما يتقنون فن التنظيم والعمل النهضوي.

بقي أن نشير إلى طانيوس، بطل الرواية، الذي يعتبره المؤلّف رمزاً لطبقة ولدت مشوّهة من زواج غير شرعي بين الإقطاع وعامة الشعب. فهو منبوذ بين زملائه منذ صغره، وقد تسبّب في نزاع داخل العائلة الإقطاعية المسيطرة، وفي نزاع مع البطريرك الماروني بسبب انتسابه إلى مدرسة القس الإنكليزي، وفي نزاع مع روكز البورجوازي الذي رحّب به في البداية ثم رفض تزويجه ابنته على أمل أن يَعْقُد المصاهرة مع ابن الإقطاعي، فأسفر النزاع عن مقتل البطريرك نفسه. وعندما تسلّم طانيوس الحكم لأيام معدودة في القرية عجز عن اتخاذ موقف يمنع انفجار الحرب الطائفية فاختار طوعاً طريق الهجرة إلى الخارج وتحوّل إلى رمز لطبقة هجينة، غير واضحة المعالم، يشدّها حنين دائم إلى الهجرة.

ان قراءة متأنية لهذه الجوانب الأساسية من الفكر التاريخي في **صخرة طانيوس** تؤكّد بالملموس كيف أن الروائي أمين معلوف قد انحاز بوضوح تام إلى رمز الطبقة الإقطاعية، الشيخ فرنسيس، على الرغم من السلبيات الكثيرة التي نعته بها. فهو زعيم حقيقي، يعيش آلام الناس ومشاكلهم، ويدفع الثمن غالياً بسبب مواقفه. كان يحلم أن يكون وريثه الشرعي متنوراً حتى يتمّ انتقال السلطة إليه بشكل طبيعي. لكن ابنه الشرعي تمسك بالذهنية الإقطاعية ولم ينفتح على ثقافة العصر. ومع ذلك، فالممارسات التي قام بها روكز، كممثّل لبورجوازية الحرير، جعلت الناس يلتفون مجدّداً حول شيخهم القديم ذي التقاليد المتوازنة، بإيجابياتها وسلبياتها. كما أنّ الحفاوة البالغة التي استقبل بها طانيوس من قِبَل أبناء قريته لم تكن في محلّها. فقد كان ضعيف الشخصية، مشتّت الذهن، يميل إلى الهروب من مواجهة الأزمة المستفحلة على غرار ما تقوم به الدولة اللبنانية، منذ نشأتها، في الدوران حول الأزمات وإبقائها دون حلّ فتنفجر بشكل أكثر دموية.

***

في الختام يمكن القول... إنّ **صخرة طانيوس** هي مزيج إبداعي بين التاريخ والرواية، بين أحداث التاريخ وعبرها، بين الماضي والحاضر، بين القدرة على التوثيق العلمي الدقيق والتخيل والإبداع، بين النصّ المكتوب والنصّ المضمر، بين حضور المؤرّخ في الفرضيات والاستنتاجات العلميّة وحضور الراوي في تفاصيل الوصف الروائي، بين تكثيف الايديولوجيا في النصّ التاريخي وكشف الزيف الايديولوجي الكامن في الممارسة السياسية. لقد منحنا أمين معلوف في **صخرة طانيوس** لذّة امتلاك معرفة تاريخية معمّقة عبر التكثيف النظري لرموز القوى الاجتماعية السائدة في جبل لبنان آنذاك، وكسر حاجز الزمن بين الماضي والحاضر بحيث يستطيع القارئ امتلاك معرفة علمية عن الرموز السياسية المسيطرة على لبنان اليوم، وإظهار عجزها عن بناء لبنان الغد فيستمر سيل الهجرة إلى الخارج ويستمر معه حنين العودة إلى الصخرة - الجبل - الوطن.

يموت لآخر أرض

غالية خوجة

وشموساً تغتصبين،
- أراها -
ويحاصرها.. سَهَرٌ قَتّالٌ في وجهي
وكذا قلبي..
فاحترزي.. من كونكِ طاغيتي
فَهَلاكي يسبح في عينيكِ
وفي عنقي..
أتقلّد شعركِ وَشْماً
وأُعلّقُ أوّلَ حرفٍ
من صاعقتي
أيُّ الأمواج،
وأيُّ الأرواح،
وأيّ الأمواتِ، تحبّينْ..؟
أتخافينَ على الوردِ
وقد افرغَهُ الرّعبُ من الموسيقا
أم تفْضَين إلى باهلةِ اللّيلِ
بأنْ تأكل مصباحي..؟
أحلف انّكِ تختلطين عيوناً..
وجنازاتٍ..
وأصابع
أحلف أنّ الجسد الأزرقَ،
في الوطن الغائبِ..
يقفز بعضَ شظايا
في حُمّايَ الكبرى...

**

قافلةٌ.. من غيمٍ ناريٍّ هطلَتْ
فتبسّمتُ لجرحي
أبدأُ منهُ،
نشيدَ الموت الغجريِّ
وأبحث عن شيءٍ لا يشبههُ..
كالبرقِ أراهُ،
وأُقفلُ طيفي
هو لا أعرف كيف يضيءُ الأرضَ،
وكيف يعودُ من المنفى
لا أعرف من أين تجيئينَ،
هو العرسُ.. بأنْ تَزْدَحمَ الرّاياتُ
قريباً من قبري...

**

صمتٌ.. ودقيقةُ موتٍ
في قنبلةِ الحُبّ..
ينتحرُ الشّاعرُ في شَطْحةِ كَشْفٍ
ويظلّ يموت لآخرِ قُبلةِ حزنٍ في دَمِهِ
ولآخرِ رفضٍ في القمرِ المغتالِ
يظلُّ
يموتُ
لآخرِ أرضْ...

* .. * .. *

حلب (سوريا)